رسائل دمشقية (*)

مراجعة خالد زيادة

يذكر نجم الدين الغزي في الكواكب السائرة أن يوسف بن حسن بن عبد الهادي هو العلامة المصنف المحدّث المعروف بابن المِبْرَد الصالي الحنبلي. المولود عام ٨٤٠ والمتوفى عام ٩٠٩ هـ (١٤٣٦ ـ ١٥٠٣م). وكان الغالب عليه علم الحديث والفقه وقد شارك في النحو والتصريف والتصوف والتفسير، وله مؤلفات كثيرة وغالبها أجزاء. ودرس وأفتى وله نظم. وقد ألّف تلميذه الشيخ شمس الدين بن طولون في ترجمته مؤلفاً ضخماً. (الكواكب السائرة. الجزء الأول، ص ٣١٦).

ويهمنا بشكل خاص أن ننوه بأن إبن المبرد المحدث والفقيه، قد كتب العديد من الرسائل التي تتمحور حول مدينة دمشق التي عاش فيها، وهو اهتمام أبداه غير واحد من الفقهاء والمحدثين. فابن طولون تلميذ ابن المبرد كتب تاريخاً «للصالحية» هو «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية». كما كتب «المعزة فيما قيل بالمزة». و«ضوء السراج فيما قيل في النساج»، يتحدث فيه عن أنواع المنسوجات بدمشق. بالإضافة إلى: «لهجة الأنام في فضل دمشق الشام».

(*) ابن المِبْرَد، الامام جمال الدين يوسف بن حسن بن عبدالهادي المقدسي: «رسائل دمشقية». حققها وقدم لها صلاح محمد الخيمي. دار ابن كثير دمشق ـ بيروت ١٩٨٨.

أما الرسائل التي لخصها ابن المبرد بدمشق فعديدة، نجد بعضها في الكتاب الذي بين أيدينا. وهي: غَدقَ الأفكار في ذكر الأنهار ـ عُدّة الملمات في تعداد الحمامات ـ الإعانات في معرفة الخانات ـ نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق.

وعدا عن هذه الرسائل الأربع، فقد كتب ابن المبرد رسائل أخرى خاصة بعالم المدينة. ويذكر نقولا زيادة في الحسبة والمحتسب في الإسلام أن لابن المبرد كتاباً في الحسبة وهو في الواقع رسالة من سبع ورقات تحدث فيه عن حرف دمشق وكل ما يتعيش به من الأسباب والسلع في أيامه. واقتصر على أصول الصناعات منها والتجارات، بغير تفصيل. ونشر حبيب الزيات لابن المبرد رسالة أخرى خاصة بعالم دمشق المديني تحت عنوان كتاب الصنائع يعدد فيه صنائع مدينة دمشق وتنوعها بشكل مختصر أيضاً تبعاً لطريقته. وعلى هذا النحو يمكن أن نتنبه إلى أن المدينة، ودمشق بشكل خاص، كانت في وسط اهتمامات ابن المبرد.

إن الأهمية التي يمكن أن نوليها لهذا الأمر تكمن في نوع النظرة التي يضفيها الفقهاء والمحدثون على المدينة، في الوقت الذي يعتبرون فيه أن عالمها هو عالمهم الخاص.

ومن هنا، فإن ابن المبرد حين يتكلم عن الصنائع فإنه يهتم، بالإضافة إلى تعدادها، وذكر نبذٍ عنها، بتحديد الموقف الشرعي منها: «إعلم ان الصنائع كثيرة، وقد اختلف العلماء في أفضلها، فقيل أفضلها الحراثة والزراعة، لأن الإنسان يتوكل على الله ضرورة في ذلك. . وقيل الأفضل التجارة مطلقاً. والتجارة تارة تكون في البلد وآلتها المال فقط. وتارة تكون في غير البلد وتحتاج إلى المال والدواب. ومما تكره التجارة فيه الأقوات من القمح والشعير ونحو ذلك. ورد في حديث: من احتكر لم يمت حتى يضربه الله بالجذام».

وعلى غرار سابقيه من المحدثين والفقهاء فإن ابن المبرد يقسم الصنائع إلى حسن وقبيح. فالحياكة بحد ذاتها تحتوي على حسن وهو عموم النفع، وأما القبيح فلما فيها من الدناءة والوضع. أما أنحس الطوائف التراسون والكيالون

وبعدهم الجمالون والحمالون والصيارفة والبزادرة والحجامون والمقلشون والدباغون والرملية والمشعوذون. وباعتباره حنبلياً، فان ابن المبرد يذكر ما يلي: وكرّه أحمد (بن حنبل) رحمه الله كسب بياعة الدقيق وكسب الماشطة ويحرم أجر النائحة والمغنية.

نتنبه إلى كون منهج «المحدثين» يتخلل رسائل ابن المبرد، فهو يعتمد الأحاديث النبوية، والسنة عموماً ليؤكد ما يصل إليه من أحكام. وفي جميع الأحوال، فإن ابن المبرد يرث هذا المنهج عن سابقيه. فحين يتحدث عن صفات المحتسب فإنه يستعير من كتب الفقهاء ما يلي: يحتاج المحتسب إلى معرفة الأحكام من الصلاة والصوم والزكاة والبيع والشراء والنكاح والطلاق والمباح من الأطعمة والمحرم والمباح من الأشربة والمحرم.. ويحتاج إلى معرفة الصنائع وجيدها ومن رديها وغشها. وخالصها من مغشوشها.

إن عَالَم المدينة هو أيضاً البيئة الخاصة بالفقهاء والمحدثين. يكتب ابن المبرد تاريخاً «للصالحية»، باعتبارها قلعة الحنابلة. كما كتب رسالة بعنوان «ثمار المقاصد في ذكر المساجد». كما كتب رسالة في «آداب الحمام وأحكامه». وعلى هذا النحو، فإن ابن المبرد يمثل نموذجاً للعلماء الذين يفردون عدداً من كتاباتهم لتمجيد معالم المدينة التي يسكنها ويعيش فيها. وإذا انطلقنا من مثل هذا الاعتبار، فلابد من أن نقرأ العديد من الأعمال على هذا الأساس، حتى تلك التي لا تجعل المدينة موضوعها المباشر.

□□□

تملك رسائل ابن المبرد الدمشقية قيمة تاريخية، وقد قام محققها صلاح محمد الخيمي بنشرها ونشر ما يعادلها لدى عدد من المؤرخين الدمشقيين. ففي «عدة الملمات في تعداد الحمامات» يذكر ١١١ حماماً، ويضيف إليها ذكره لحمامات الشاغور والعقيبة وباب السلامة وباب توما والصالحية والمزة والغوطة بحيث يصل ما يذكره إلى حدود المائتين. ويقارن المحقق ما يذكره ابن المبرد من حمامات، بما يذكره ابن طولون في مفاكهة الخلان وما يذكره كتاب المواكب الإسلامية في المحاسن الشامية.

وفي «الإعانات على معرفة الخانات» يذكر ابن المبرد خانات دمشق تبعاً لمواقعها من المحلات والأسواق مع تحديد مواقعها، وعلى الغرار نفسه فإن المحقق يقارنها بما يذكره ابن طولون في مفاكهة الخلان، وبما يذكره النعيمي في: «كتاب الدارس في تاريخ المدارس».

وأخيراً، فإن ابن المبرد يذكر في «نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق» ٧٨ سوقاً، مع تحديد موقع كل سوق منها. أما ابن طولون فيذكر ٣٨ سوقاً فقط، بينما يذكر النعيمي ٥٩ سوقاً، أما القساطلي في «الروضة الغنّاء» فيذكر ثلاثين فقط.

ونسجل هنا الأهمية الخاصة بهذه الرسائل فيما يتعلق بتركيب المدينة العربية/ الإسلامية، الأمر الذي لا تزال تحيط به الإشكالات. فمواقع الحمامات والخانات والأسواق مسائل تحتاج إلى إعادة رسم وإعادة تجديد. إن الأسواق لا تشكل بالضرورة محيطاً دائرياً بالمسجد الجامع، كما أنها لا تشكل بالضرورة خطاً متصلاً.. إن التدقيق بهذه الرسائل وأمثالها فيما يختص بدمشق وسواها من المدن يؤدي إلى إضافات أساسية تعمق مفهومنا للمدينة.